

محمد عبد الله المحجري | Mohammed AL-mahjari \*

## الأسئلة والتحويلات من عصر العقل إلى ما بعد الحداثة

### Questions and Transformations from the Age of Reason to Postmodernism

**ملخص:** تهدف الدراسة إلى استقراء التحويلات من عصر العقل إلى ما بعد الحداثة، وتحليلها في أفق الأسئلة التي أسهمت في تشكيلها، انطلاقاً من فرضية الارتباط الوثيق بين تخليق الأسئلة التأسيسية والتحويلات. وقد رصدت الدراسة تلك التحويلات، باستقراء الأسئلة التأسيسية وآثارها في شكل يراعي التحقيب والخطية الزمنية، من عصر العقل إلى ما بعد الحداثة. وتمثلت الأسئلة التأسيسية بثلاثة أسئلة مركزية هي: سؤال المنهج الذي أسس عصر العقل، وسؤال التنوير الذي أسس الحداثة، وسؤال القيمة والجدوى الذي أسس جذور ما بعد الحداثة. قامت الدراسة على مقارنة بينية؛ بين الفكر الفلسفي والفكر الأدبي، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

**كلمات مفتاحية:** التحويلات، عصر العقل، سؤال المنهج، سؤال التنوير، سؤال القيمة والجدوى.

**Abstract:** This study explores transformations that occurred from the age of reason to postmodernism. It conducts an analysis of these transformations in light of questions that contributed to their formation, based on the hypothesis of a close connection between the synthesis of foundational questions and transformations. The study observes these transformations by extrapolating the foundational questions and their effects, taking into account temporal periodization from the age of reason to the postmodern period. These foundational questions are threefold: Through what method was the Age of Reason established? How did enlightenment establish modernity? And how did the questions of value and advantage establish postmodernism? The study is based on an interdisciplinary approach between philosophical and literary thought in the nineteenth and twentieth centuries.

**Keywords:** Transformations, The Age of Reason, Method, Enlightenment, Value and Advantage.

\* أستاذ الأدب والنقد المساعد، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر.

Associate Professor of Literature and Criticism, Department of Arabic Language, College of Arts and Sciences Qatar University.

[malmahgari@qu.edu.qa](mailto:malmahgari@qu.edu.qa)

## مقدمة: قلق الأسئلة: الحالة الغربية من العقلانية وصناعة الوعي إلى ما بعد الحداثة وتقويض اليقين

تُعَدُّ الأسئلة سبباً في تأسيس الإدراك الإنساني منذ الأزل، وتأسس الوعي بالعلاقات، ونشوء الفلسفة والتفلسف. تتوالى الأحداث فتتشكل الظاهرة، ويتعقد الموقف، وتشابك العلاقات، ويترتب الأثر، ليأتي بعد ذلك دور التأمل وقلق الأسئلة إثر المأساة والحيرة والألم. لم يحدث في الواقع، لا بالضرورة ولا بالاحتمال، وجود الإشكالية ووجود مبحثها الأنطولوجي في سياق زمني محايث؛ ذلك أنه مع كل حقبة نقدية في الفكر كان العالم ينتقل إلى موضوع جديد يقتضي تموضع الفكر النقدي في شكل تعاقبي، مرجعه نواتج المشكلة وأثارها، ووسيلته التأمل في المآلات وعواقبها. وكلما أنتج الفكر الإنساني رؤية نقدية جديدة يقارب بها منطق الواقع بالتحليل، يكون العالم قد انتقل إلى موضوع جديد قائم على عوامل تحولاته الاجتماعية والمفاهيمية واحتياجاته النفسية والعملية. ومع كل واقع جديد تنشأ التصورات المختلفة للوجود، وعنها تنشأ مشكلات مستجدة على مستوى الواقع وعلى مستوى الفكر معاً، وعبرهما تتخلق التفاوتات<sup>(1)</sup>، ويتخلق قلق الأسئلة الوجودي في كل مرة وعلى الدوام. وباستقراء الواقع تتجلى صورة المزوجة بين قلق الأسئلة في أشكالها الكلية وتموضع إجاباتها بين العقلانية والوعي مرةً والعدمية والوهم مرةً أخرى. يمكننا هنا افتراض مؤضعة العدمية في مقابل العقلانية، بوصفها آخر حدّ المقابل، وبينهما تقع تلك التفسيرات المحايدة أو المخاتلة أو التي تلك تحاول التوازن والتوفيق.

كانت الحالة الغربية مثلاً واضحاً لما صنعه ذلك القلق المستبطن الذي ترجم نفسه عبر الأسئلة الكبيرة التي تمخض عنها الفكر الغربي: سؤال المنهج<sup>(2)</sup> الذي ولد عصر العقل و"العقلانية"<sup>(3)</sup>، و"سؤال التنوير"

(1) المقصود بتخلق الأسئلة وتخليقها، في الدراسة، باستخدام المصدر "تفعل" (اللازم من الخماسي تفعل) و"تفعل" (المتعدي من الرباعي المضعف فعل)، هو: ديمومة تولد الأسئلة وتثويرها في سيرورة واستمرارية؛ في دلالة التحول مع "التخلق"، ودلالة التحويل مع "التخليق".

(2) المقصود بسؤال المنهج، في الدراسة، تموضع المنهج في دائرة التفكير، وتحوله إلى أداة للمساءلة والوصول إلى الحقيقة. وقد أسس سؤال المنهج في أوروبا في اتجاهين متوازيين ومختلفين: اتجاه أسسه فرانسيس بيكون (المدرسة الإنكليزية) يبدأ من الخارج التجريبي صوب الداخل والأفكار، واتجاه أسسه رينيه ديكارت (المدرسة الفرنسية) يبدأ من الداخل والأفكار صوب الواقع الخارجي.

(3) تأتي العقلانية Rationalism بمعانٍ متعددة كما في موسوعة لالاند الفلسفية. وهي في هذه الدراسة تقترب من المعاني (ب) و(ج) و(د) التي يقدمها لالاند، وهي على النحو الآتي: المعنى (ب) "مذهب يرى أن كل معرفة يقينية تصدر عن مبادئ لا تقبل الدحض، قبليّة، بيّنة، تكون حصيلتها اللازمة، ولا يمكن للحواس أن تقدم عنها سوى نظرة ملتبسة وظرفية، نظرة عابرة إلى الحقيقة (ديكارت، سبينوزا، هيغل)". المعنى (ج): "منظومة أسس كلية ومبادئ ضرورية تنظم المعطيات التجريبية (كانط)"، المعنى (د): "من زاوية المنحى العقلي: إيمان بالعقل، في البيّنة والبرهان، اعتقاد بفعالية النور الطبيعي، بهذا المعنى يتعارض مع اللاعقلانية، بكل صورها (صوفية، باطنية، فلسفة الشعور، سلفية) [...] ويعود مصطلح عقلانية، أو عقلاني، بالمعنى (ب)، إلى القرن السابع عشر". يُنظر: أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة خليل أحمد خليل، ج 3 (بيروت/باريس: منشورات عويدات، 2001)، ص 1172-1173.

الذي توج "فلسفة الأنوار"<sup>(4)</sup> وهيئاً الأرضية للتفكير النقدي وأوجد الحداثة<sup>(5)</sup>، وسؤال الجدوى<sup>(6)</sup> الذي خلق العيب وما بعد الحداثة<sup>(7)</sup>. كما كانت مثلاً آخر، جديراً بالتأمل، لتلاشي الأسئلة وقلق النكوص مع فلسفة ما بعد الحداثة التي ذهبت تقوض اليقين، وتفكك المركز، وتُشظي البنية، وتجاهه العقل، وتنتقد الحداثة.

## أولاً: عصر العقل وسؤال المنهج

عبر سؤال المنهج، كان عصر العقل في الفلسفة الحديثة قد تأسس مع عقلانية رينيه ديكارت René Descartes (1650-1659)، ثم مع أفكار باروخ سبينوزا Baruch Spinoza (1632-1677)، وتوماس هوبز Thomas Hobbes (1588-1679)، وغوتفريد فيلهلم ليبنز Gottfried Wilhelm Leibniz (1646-1716)، وغيرهم، على مبادئ الوعي بالذات والفلسفة الذاتية. وشكّل سؤال المنهج، منذ فرانسيس بيكون في كتابه الأورغانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة (1620)<sup>(8)</sup> *The Novum Organum: Sive Indicia Vera de Interpretatione Naturae*

(4) سؤال التنوير هو خلاصة ما قدمته فلسفة الأنوار متّوجّهاً بأسئلة إيمانويل كانط المشهورة التي سترد في الدراسة. وفلسفة الأنوار، "حركة فلسفية في القرن الثامن عشر، متميزة بفكرة التقدم، وتحدي التقليد والسلطة، وبالإيمان بالعقل وبالآثار التهذيبية، وبالدعوة إلى التفكير وإلى الحكم ذاتياً على الأمور". يُنظر: لالاند، ج 2، ص 759.

(5) أبرز معاني الحداثة، وفقاً لموسوعة روتليدج للفلسفة، الاستثناء من فرضية وجود واقع خارجي متماسك يمكن الوصول إليه تجريبياً. والرفض الواعي الحثيث للتوجه المكاني والزمني الذي كان الفن والأدب يقدمانه منذ عصر النهضة، إضافة إلى تحول الاهتمام الفني من الموضوعات إلى تمثيلاتهما، ينظر:

Edward Craig, *Routledge Encyclopedia of Philosophy* (New York/ London: The Softback Preview Publisher, 1998), pp. 5571-5572.

أما في الفكر الأدبي، فالحداثة، زمنياً، جاءت تالية للحداثة في الفكر الفلسفي. ينظر:

Chris Baldick, *The Concise Dictionary of Literary Terms* (Oxford: Oxford University Press, 1996), p. 140.

(6) يقصد بسؤال الجدوى والقيمة في الدراسة المساءلات التي وجهها نيتشه، على وجه التحديد، في فلسفته الناقدة للتنوير والعقلانية والأخلاق والمثُل، المؤسسة لشكّية النظرة إلى القيمة، في سبيل إرباك المسلمات السائدة وما يُعتقد أنها حقائق، وفي سبيل تقويض مثالية الأخلاق. وبشكل آخر تقويض السؤال النقدي الكانطي، القائم على المنطق العقلاني؛ ففي رأي نيتشه، "يبدو لنا العالم منطقياً؛ لأننا نحن من مُنطّقناه أولاً". ينظر: فريديريك نيتشه، إرادة القوة: محاولة لقلب كل القيم، ترجمة محمد الناجي (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2011)؛ وتنظر عبارته السابقة، في: المرجع نفسه، ص 214.

(7) ما بعد الحداثة بحسب موسوعة ستانفورد للفلسفة: "مجموعة من الممارسات النقدية والاستراتيجية والخطابية التي تستخدم مفاهيم مثل الاختلاف والتكرار والواقعية الفائقة؛ لزعزعة مفاهيم أخرى مثل الوجود والهوية والتقدم التاريخي واليقين المعرفي ووحدة المعنى". ينظر موقع الموسوعة الإلكتروني:

"Postmodernism," *Stanford Encyclopedia of Philosophy*, 30/9/2005, accessed on 17/3/2022, at: <https://stanford.io/34wots6>

(8) مثّل كتاب الأورغانون الجديد فاتحةً جديدة في المنهج وفي طرائق التفكير والنظر، بقسميه المركزيين اللذين تناولهما الكتاب: مواطن الزلل أو الأوهام الأربعة في القسم الأول من الكتاب، وقواعد التجريب في القسم الثاني منه، وإذا ما أخذنا أهمية الكتاب في سياقه التاريخي، وإن كان الزمن قد تجاوز القسم الثاني، فإن القسم الأول ما يزال شاهداً على إشكالات التفكير حتى يومنا هذا. لقد كانت الأوهام الأربعة التي تناولها يكون فاتحةً جديدة في تخليص العقل الغربي من إشكالات ما سماها بيكون نفسه "التصورات الزائفة التي استحوذت على الذهن البشري"، الأوهام الأربعة التي رمز لها بـ: أوهام القبيلة *Idols of the tribe*، وأوهام الكهف *Idols of the cave*، وأوهام السوق *Idols of the Market Place*، وأوهام المسرح *Idols of the theater*. يُنظر: فرانسيس بيكون، الأورغانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة، ترجمة عادل مصطفى (القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2013)، ص 28-31.

ورينيه ديكرت في كتابه *مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم* *Discours de la Méthode Pour bien conduire sa raison, et chercher la vérité dans les sciences* (1637)<sup>(9)</sup>، محور ارتكاز الأسئلة التي ولّدت عصر العقل، وتمثيالاته المتعددة في الواقع الأوروبي، وتمخضت تلك الأسئلة عن واقع جديد أضحت العقلانية سمته الأساسية، العقلانية التي تحولت بفعل سؤال المنهج إلى "أداة إجرائية تعتمد على العلوم الرياضية لتأسيس المعرفة الفلسفية بالعالم"<sup>(10)</sup>.

كان عصر العقل ردة فعل طبيعية على الرؤية اللاهوتية والتفسيرات الثيولوجية المصادمة لمنطق الكشف العلمي ومنطق الفكر الفلسفي ومنطلقات العقل الجمعي، وكانت قد بدأت تتكوّن في أوروبا منذ القرن السادس عشر الميلادي<sup>(11)</sup>. وشكّلت العقلانية، أيضًا، بديلاً من الرؤية اللاهوتية المتعالية للعالم؛ تلك التي كانت تقارب واقع الكشف العلمي ومستجدات الفكر الحديث بمزيد من الإيغال في التعنت والمواجهة، وبمزيد من الإصرار على التمسك بالأفكار القديمة. ومن البداهة أن تكون العقلانية (ذلك المفهوم المكثف) البديل الأكثر تناسبًا لواقع كالعقل الأوروبي في تلك المرحلة، وهو ما يعكس واقع الحال، من التصادم بين التفسيرات القادمة من واقع الثقافة التصالحية الماضية، بكل إرثها غير الخاضع للفحص والتمحيص والنقد والمنطق العقلاني، ومنطق الحياة المجتمعية الجديدة الذي بدأ الأوروبيون يتلمسونه في واقع حياتهم ويعايشونه في أزمنة التأسيس. يضاف إلى ذلك أنه من البداهة أن يكون عصر العقل نتاجًا واقعيًا لسؤال المنهج الذي كان قد ترسخ في الحياة العملية في شكل مادي ملموس.

كان المنهج قد تأسس في البنية الذهنية الأوروبية بدءًا بالمنهج التجريبي عند بيكون، والمنهج العقلي عند ديكرت، ثم المنهج النقدي عند إيمانويل كانط Immanuel Kant (1724-1804)، والمنهج الجدلي عند فريدريش هيغل Friedrich Hegel (1770-1831). إلا أن العقلانية، كما أسسها ديكرت بدءًا بكتابه *مقالة الطريقة*، بدت كأنها كلما أوغلت الأزمنة في التقدم أوغلت هي في المفارقة بين الرؤية المتعالية للعالم والرؤية التي تؤسس لمنهجية العقل العملي الذي يستنبط الأفكار والمقولات من واقع ما يمكن إدراكه وتفسيره، وللحواس فحصه واختباره؛ تلك الأزمنة التي تمثلت بالعقلانية، والتنوير، والحدائث، وصولاً، في نهاية المطاف، إلى ما بعد الحدائث التي أنكرت الرؤيتين معًا: الرؤية المتعالية المستندة إلى مركز العقل الكلي المتجاوز والمفارق، والرؤية المتعالية المستندة إلى مركز العقل

(9) افتتح ديكرت كتابه بمقولته ذائعة الصيت: "العقل هو عدل الأشياء توزيعًا بين الناس"، في فاتحة جديدة تؤسس إمكان النظر بمعزل عن السّجاجات والأطر، وانطلق من مبدأ "الكوجيتو" في إثبات وجود الأنا من حيث هي كيان مفكر يُصدر الفعل ويصدر الوعي، بعبارة المشهورة: "أنا أفكر إذن أنا موجود"، في تأسيس لإعادة المعرفة إلى الذات بوصفها من ينتجها، بعد إخضاعها للشك الذي يسائلها، ومن ثم يمنحها درجتها في اليقين. تنظر العبارة الأولى في: رنيه ديكرت، *مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم*، ترجمة جميل صليبا (الجزائر: موفم للنشر، 2007)، ص 3. وتنظر العبارة الثانية في: المرجع نفسه، ص 44.

(10) عز العرب لحكيم بناني، "المعرفة، نحو عقلانيات إجرائية"، *عالم الفكر*، مج 41، العدد 154 (تشرين الأول/أكتوبر - كانون الأول/ديسمبر 2012)، ص 58.

(11) الإشارة هنا إلى ما بعد الثورة البروتستانتية التي أسست الفردي في مقابل الجماعي وقوضت عرش البطيريركية الأبوية، ومرور ما يقارب من قرن من الزمان على اختراع الآلة الطابعة، والتأسيس للمعرفة التي تنبع من الإنسان نفسه.

الإنساني المحايث (على اعتبار أن "التنوير الغربي لم يُحْدِث تنويراً كاملاً، إنما نقل سلطة اللامتناهي من حامل إلهي مفارق، إلى حامل إنساني محايث")<sup>(12)</sup>.

وقد مثل عصر العقل والعقلانية بذلك محاولة مبكرة لمَوْضَعَة الظواهر الإنسانية في النطاق البشري، ونقلها من الرؤية اللاهوتية والتفسير الثيولوجي إلى الإطار الإنساني، كما أنها اتخذت من إعادة إنتاج النظام الاجتماعي وسيلة لها في التأسيس للعقلنة<sup>(13)</sup>، وبدا العقل كأنه "هو الحق الخالد، وهو الماهية ذات القوة الخالدة"<sup>(14)</sup>، و"أنه يسيطر على العالم، وأن تاريخ العالم بالتالي يتمثل أمامنا بوصفه مساراً عقلياً"<sup>(15)</sup>. وما إن انقضى القرن الثامن عشر ولحقت به أفكار هيغل حتى بدأت العقلانية (وسؤالها سؤال المنهج) في الإيغال بشكل حادّ نحو العقلانية الأداتية Instrumental Rationality، الراضية لكل تفسير لا يسنده واقع مادي محسوس؛ إذ ما إن جاء أوغست كونت (1798-1857) Auguste Comte (بفلسفته الوضعية)، وتشارلز داروين (1809-1882) Charles Darwin (بنظريته عن التطور)، وكارل ماركس (1818-1883) Karl Marx (بفلسفته المادية)، وفريدريش نيتشه Friedrich Nietzsche (1844-1900) (بمفارقتها في جينالوجيا الأخلاق *On the Genealogy of Morality*) (1887)، وإميل دوركايم Émile Durkheim (1858-1917) (بتأسيسه قواعد المنهج في علم الاجتماع *Les Règles de la méthode sociologique*) (1895)، وسيغموند فرويد Sigmund Freud (1856-1939) (بتغليبه سيطرة اللاوعي على السلوك الإنساني)؛ حتى انتقلت الفلسفة من الفلسفة الذاتية المثالية Subjective idealism إلى الفلسفة الموضوعية المادية، وأخذ الوعي القائم على أسس العقلانية الديكارتية في التقهقر والتراجع، وتوحشت العقلانية إزاء الذاكرة والزمن<sup>(16)</sup>.

(12) العبارة لمطاع صفدي من مقدمته كتاب الكلمات والأشياء لميشيل فوكو. ينظر: ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء، ترجمة مطاع صفدي [وأخرون]، ط 2 (بيروت: دار الفارابي، 2013)، ص 8. وأصل جدل الفكرة لسينوزا في كتابه الإيثيقا (1677 *Ethica*)، ينظر: الحسان سليمان، "جدلية التعالي والمحاينة في الفلسفة الحديثة: نقد اسينوزا للأصول الأرسطية والأسس الديكارتية للتعالي الإلهي"، تبثين، العدد 25 (صيف 2018) والإشارة هنا إلى المرحلة الوسيطة التي استبعد فيها سينوزا "مسلمة المتعالي"، وذهب إلى أن الإله علة محاينة؛ وهو ما أسهم في إيجاد نظرة جديدة للوجود (في الحالة الغربية)، وتصور مختلف للعلاقة الناظمة بين المطلق والإنسان (بإزاحة التمثيلات الوسيطة، وبالمحاينة بدلاً من التعالي)، ينظر كذلك: باروخ سينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009)، ص 54-55.

(13) استُخدم فعل "العقلنة" في الدراسة في سياق الدلالة على الفعل القصدي من إسقاط العقلانية في أشكال إجرائية مجزأة في أنماط الحياة الإنسانية. يفرق إدغار موران بين: العقل كأداة للمعرفة، والعقلنة كمذهب، والعقلنة كفعل في النمط الحياتي، والتبرير العقلاني كمبدأ يُستند إليه في تبرير الفعل، يُنظر: إدغار موران، الفكر والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب، ترجمة أحمد القصور ومنير الحجوجي (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2004).

(14) فريدريك هيغل، العقل في التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ج 1، ط 3 (بيروت: دار التنوير، 2007)، ص 76.

(15) المرجع نفسه، ص 78.

(16) تنظر عبارة هربارت ماركوز: "وإذا كانت العقلانية التي لا تني تتقدم في المجتمع الصناعي المتقدم تميل إلى تصفية عنصري الزمن والذاكرة بوصفهما مخلفات لاعقلانية، فإنها تميل في الوقت نفسه إلى تصفية العقلانية التي تشتمل عليها هذه المخلفات اللاعقلانية"، يُنظر: هربارت ماركوز، الإنسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، ط 3 (بيروت: دار الآداب، 1988)، ص 137.

## ثانياً: الحداثة وسؤال التنوير

يطلق المؤرخون على القرن الثامن عشر تسمية "قرن الأنوار" أو "التنوير"<sup>(17)</sup>. وقد تُوجَّح هذا القرن بالثورة الفرنسية، وبفلسفة كانط، اللتين كانتا بوابة الدخول إلى مرحلة الحداثة. تجاوز قرن الأنوار العقلانية وسؤال المنهج، إلى تأسيس النزعة الإنسانية وسؤال التنوير. لقد استفادت المجتمعات الغربية على واقع في حاجة إلى الثورة والتغيير، فكانت الثورة الفرنسية، وكان أن فُتح الباب على مصراعيه لحركة الحداثة لتشكيل المجتمع الحداثي في القرن التاسع عشر، ولميلاد المجتمع المدني وهيمنة الثقافة المدنية وأشكالها الرمزية التي تعبّر عنها: الدولة الحديثة، والقانون، والنظام الديمقراطي، والفنون. وأصبح الفكر حداثياً بتبنيه موقف الأسئلة والافتراضات الخاضعة للتحقق والاحتمالات الممكنة وإخضاعها للبحث المنهجي، وبتنازله عن اليقين المطلق والموقف النهائي والإجابات الجاهزة؛ ما أسهم في تقديم الحداثة بمعناها المعقلن "بناء صورة عقلانية للعالم"<sup>(18)</sup>. كان الهدف هو التوصل إلى معايير موضوعية في المعالجة لاكتشاف الحقيقة كما هي، لا كما يجري تصويرها أو تصورها، وفقاً للمنهج العقلاني الذي يولد معياريته في التفسير والافتراض والتحقق والحكم من داخله.

شكّلت أسئلة كانط المشهورة في كتابه *Nقد العقل المحض* (1787) *The Critique of Pure Reason*:  
ماذا يمكنني أن أعرف؟ ماذا عليّ أن أفعل؟ ما المسموح لي بأن أمله؟ ما الإنسان؟<sup>(19)</sup>:

- تنويجاً ختامياً لعصر الأنوار؛ تحولت معه العقلانية العلمية إلى العقلانية النقدية.
- بوابةً للعبور نحو الحداثة؛ تحولت معه امتيازات النبالة وسيادة رجال الدين والإقطاع إلى تحقق الهوية الفردية لكل شخص في المجتمع.
- مفتتحاً مغايراً في تاريخ الفكر؛ تحولت معه النقد القائم على الحرية إلى موضوع مركزي للفلسفة، يوازن بين النزعة الوثوقية الدوغمائية *Le dogmatisme* والنزعة التجريبية الريبية *Le scepticisme*؛ لقد كانت الأسئلة محرّضاً أساسياً يصنع الوعي الذي يرفض يقينيات الماضي.

عرّف كانط التنوير بكونه وضعاً يتحرر فيه الإنسان من حالة القصور المتمثل بالعجز عن استخدام الفكر باستقلالية؛ وذلك في إجابته عن سؤال التنوير في مقالته المشهورة "إجابة عن سؤال: ما هو التنوير؟" "Answering the Question: What Is Enlightenment?" (1784) (وهو تعريف بالسلب يشير إلى الجرأة في استخدام العقل والتفكير بحرية). يقول كانط: "التنوير هو تحرر الإنسان من حالة القصور. والقصور هو عدم القدرة على الاستفادة من الفكر دون توجيه الآخرين. إن هذا القصور لا يكمن سببه في نقص الفكر، بل في نقص العزيمة والشجاعة للاستفادة من الفكر باستقلالية. تحلّل

(17) ينظر: موريس كروزيه [وآخرون]، تاريخ الحضارات العام، ج 5 (القرن الثامن عشر)، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد داغر، ط 2 (بيروت/باريس: منشورات عويدات، 1987)، ص 7.

(18) ألان تورين، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1997)، ص 52.

(19) عمانوئيل كنت، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة (بيروت: مركز الإنماء القومي، 1990)، ص 385.

بالشجاعة لاستخدام عقلك! من هنا جاء شعار التنوير"<sup>(20)</sup>. واشترط كانط لتحقيق التنوير الحرية - كونها تمنح الإنسان عقله الناقد المسؤول، وتوصله إلى مرحلة الرشد - إذ يقول: "ومع ذلك، فليس مطلوباً لهذا التنوير شيء غير الحرية. الحرية غير المؤذية التي يمكن تسميتها بشكل صحيح بالحرية، أي: استخدام عقل الفرد في جميع الأمور. لكنني الآن أسمع نداء من جميع الجهات: لا تناقش! الفاضاب يقول: لا تناقش، نقد فقط! والمسؤول المالي يقول: لا تناقش، ادفع فقط! والكاهن يقول: لا تجادل، آمن فقط!"<sup>(21)</sup>. إن واقع الحداثة الذي تأسس على سؤال التنوير، ممثلاً بحرية التفكير المؤسس على النقد وقيادة الذات بالخروج من عباءة الآخرين، كان ما يزال بعيد المنال؛ فعلى الرغم من أن حركة الأنوار على امتداد القرن الثامن عشر كانت تؤسس المجتمع الحديث، فإن سؤال التنوير المؤسس على النقد الحر لم يكن قد تجرّد في الواقع، ففي رأي كانط: "إذا سئلنا عما إذا كنا نعيش في عصر التنوير، فالجواب هو: لا، لكننا نعيش في عصر يستتير؛ فما يزال ينقصنا كثير من الأمور لكي يكون الناس في حالة تمكنهم بالفعل من الثقة والاستخدام الجيد للعقل، في أمور الدين دون توجيه من الآخرين"<sup>(22)</sup>. وهو ما أسهم كانط في إنجازه عبر مشروعه النقدي.

أكد التنوير القيم المركزية التي تمثلت، بناءً عليه، بمشروع الحداثة؛ الحرية، والتقدم، والديمقراطية، والعلمانية، والمساواة. إلا أن ما أحدثه كانط، الذي توجّج مرحلة التنوير، هو أنه نقل التنوير من حالة العقلانية العلمية، التي كانت قد تأسست منذ بيكون وديكارت بسبب سؤال المنهج، إلى حالة العقلانية النقدية التي توجّجها سؤال التنوير: تجاوز السهولة، وتأمل البديهيات، وفحص المسلمات. وفي جانب آخر كانت الحداثة الجمالية تقدم مغايرة للواقع الجمالي السائد منذ شارل بودلير (1821-1867)، وكانت عبارته المشتهرة في كتابه رسام الحياة الحديثة *Le peintre de la vie Moderne* (1863) حاسمة بين حالتين، وفاصلة بين زمنين<sup>(23)</sup>.

وبسبب المعرفة الإمبريقية، وهي أحد أوجه العقلانية الإجرائية التي تحوّل معها العقل الأنواري إلى عقل أداتي "والتنوير إلى ميثولوجيا"<sup>(24)</sup>، تحولت العقلانية والوعي الذاتي من بوابة الأسئلة والافتراضات الخاضعة للبحث على الدوام إلى مسطرة جاهزة للمعايرة، وإلى أداة من أدوات اليقين، ذلك الذي تُثبّت

(20) Immanuel Kant, *Toward Perpetual Peace and Other Writings on Politics, Peace, and History*, David L. Colclasure (trans.) (New Haven/ London: Yale University Press, 2006), p. 1.

(21) Ibid., p. 4.

(22) Ibid., p. 6.

(23) تنظر عبارته المشتهرة في كتابه رسام الحياة الحديثة: "أعني بالحداثة الزائل، الهارب، العرضي، نصف الفن الذي نصفه الآخر هو الأبدى والثابت". يُنظر:

Charles Baudelaire, *The Painter of Modern Life and Other Essays*, Jonathan Mayne (trans.) (New York: Phaidon Press, 1965), p. 13.

(24) أصل العبارة لثيودور أدورنو Theodor W. Adorno (1903-1969) وماكس هوركهايمر Max Horkheimer (1895-1973) في كتابهما جدل التنوير Dialectic of Enlightenment: "الأسطورة بالذات قد صارت تنويراً، والتنوير قد يتحول إلى أسطورة"، ومفهوم العقل الأداتي مفهوم مركزي لديهما، وقد استخدمت مدرسة فرانكفورت هذا المفهوم استخداماً مكثفاً، يُنظر: ثيودور أدورنو وماكس هوركهايمر، جدل التنوير: شذرات فلسفية، ترجمة جورج كتورة (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006)، ص 19.

حركة العلم وفلسفة المعرفة تغيره على الدوام، ويثبت الواقع نسبيته؛ "إن معيار العقلانية يتغير بتغير المعتقدات العلمية"<sup>(25)</sup>.

وعبر العقلانية الأداتية، والفلسفة الوضعية، والتجريبية الصارمة، والدوغمائية القاطعة، أصيبت قيم التنوير، كما أصيب سؤال التنوير، بالانتكاس والتراجع، وتوطد المجتمع الإكراهي الانضباطي (بحسب ميشيل فوكو Michel Foucault 1926-1984)، واتسم العلم في بعض مساراته بالشكلانية، تلك التي لا تعترف بشيء لا يقبل القياس، "وانقسمت العقول بشأن ما إذا كان عليها أن تتشبث بمقاصد التنوير، مهما كان مكسوراً، أو ما إذا كان عليها أن تنفض يديها من مشروع الحداثة"<sup>(26)</sup>.

### ثالثاً: الريبية وسؤال القيمة والجدوى (جذور ما بعد الحداثة)

كان العقل الأنواري قد ثبت في رؤيته كليتة الوجود، بوساطة عقلنة التفكير وعقلنة الحياة وعقلنة التصور؛ عقلنة التفكير بإفاد المنهجية الصارمة في النسق الرياضي والنسق الفلسفي، وعقلنة التصور بتثبيت الرؤية النسقية للوجود عبر تقريب المتجاوز المفارق من المحايث الإنساني<sup>(27)</sup>، وعقلنة الحياة بخلق النظامية الجادة في كل مسارات الشأن العام.

وكانت أسئلة العقل الأنواري (متوجاً بسؤال التنوير) قد أنتجت التحول؛ بدءاً بمأسسة الدولة الضابطة لإيقاع المجتمع، ومروراً بتشريع القوانين الضابطة لإيقاع الحياة، ووصولاً إلى تنميط البشر بإطار التصور (البركدايم) الجديد: "بينما كان يسود فكر القرنين السابع عشر والثامن عشر المواجهة بين الذات والعقل، وبين النفعية والحق الطبيعي، كانت النزعة التاريخية في القرن التاسع عشر تذيب الذات في العقل، والحرية في الضرورة، والمجتمع في الدولة"<sup>(28)</sup>.

وكانت العقلانية (ومن بعدها التنوير) قد ولدت، من بين ما ولدت، حتمية التسلسل المنطقي وحدته في قوانينها، ودوغمائية التصور وانغلاقه في أحكامها، وخطية التفكير ونسقيته في تفسيراتها، ثم جاء داروين وماركس ونييتشه وفرويد فبذرت بذور التفكير الريبي والشكوكي والمفارق، وبدأت الأسئلة دورة جديدة من التحول:

• تطورت فكرة الحتمية إلى الجبر، فتحول الإنسان إلى إنسان مُسَيَّر، لا مخير؛ مُسَيَّر بتطوره الميكانيكي الطبيعي الذي لا يد له فيه (وفق تشارلز داروين)، ومُسَيَّر بالحركة المادية، التي هو ناتج منها، في

(25) الفكرة لتوماس كون Thomas Kuhn (1922-1969) [وآخرون]، يُنظر: بناني، ص 73.

(26) يورغن هابرماس، "الحداثة - مشروع لم يكتمل"، ترجمة فتحي المسكيني، تبين، العدد 1 (صيف 2012)، ص 188.

(27) "بعد تعرف الإله بكلية الوجود توصل النسق الهيجلي إلى اعتبار الطبيعة هي الإله منسبطاً في الفضاء المكاني، وأن التاريخ هو الإله منسبطاً في الفضاء الزمني". والعبارة لروجيه غارودي، نقلاً عن: محمد الأمين بحري، البنيوية التكوينية (بيروت: منشورات ضفاف، 2015)، ص 23.

(28) تورين، ص 114.



تموضعه (وفق كارل ماركس)، ومُسَيَّرَ بمخزونه اللاواعي الذي يدير حركته وقراراته وردّات فعله (وفق فرويد).

• تغيرت النظرة إلى العلاقات بين البنى المختلفة وتراتبها السببي؛ فشاعت فكرة فاعلية البنية التحتية في البنى الفوقية، وأن التحويلات في البنى الفوقية ما هي إلا ناتجٌ من التحويلات في البنية التحتية، وأن الفكر مشروط بمصالح الطبقة الاجتماعية التي تتجه، وباتت تجد مكانها في البعدين الفلسفي والحياتي.

• تغيرت النظرة إلى الفلسفة ووظيفتها؛ من المثالية إلى الواقعية، و"من تفسير العالم إلى تغييره"<sup>(29)</sup>، وتغيرت كذلك طرائق التفكير والاستبصار؛ من التفكير الخطي والواحد والتعاقبي إلى التفكير التشعبي والاحتمالي والتزامني، في انشقاقٍ غير تصالحيٍّ يفارِقُ نمطية التفسير، وحتمية النتائج، وميكانيكية المعالجة، ما بعد نسبية ألبرت أينشتاين (1879-1955)، ومبرهنة كورت كودل Kurt Gödel (1906-1978) في "عدم الاكتمال"<sup>(30)</sup>.

إلا أن مجموعة من الرؤى الثيولوجية (اللاهوتية) والنزعات الأسطورية القديمة، تلك التي جاء التنوير لإزاحتها وعمل جاهداً على تجاوزها بالعقلانية والنسقية والنظمية (عقلانية التفكير، ونسقية التصور، ونظمية الحياة)، كانت تتماهى ضمن نطاق الرؤية الفلسفية الحديثة وما صدر عنها من رؤية للوجود:

• النزعة إلى الشعور بفوقية الأنا، التي تخفي وراءها صورة البطولة الملحمية المغايرة؛ وهي ما ولّد العنصرية في الرؤية إلى المختلِف خارج النطاق الغربي.

• النزعة إلى وثنية القوة والتحكم والسيطرة، الناتجة من العقل الأداتي ومفهوم البقاء للأقوى الدارويني؛ وهي ما أنتج تشظي القيمة الإنسانية في إنسانها الغربي، وأنتج، من بين ما أنتج، الاستعمار والحروب وهلاك ملايين البشر.

• نزعة صنمية الإحساس بامتلاك الحقيقة في الواقع المادي؛ وهو ما أفضى إلى البارانويا Paranoia (جنون العظمة) في غرور المعرفة، و يقينية المنهج، وحتمية العلم.

(29) وفقاً للعبارة المشهورة لماركس: ظلت الفلسفة تفسر العالم بطرائق مختلفة، ولكن المهم هو تغييره.

(30) تشير مبرهنة "عدم الاكتمال" التي أثبتها كورت كودل إلى أن اليقين المطلق يظل، حتى في الرياضيات، قابلاً للاحتمال، وهو ما يشير إلى أن نظام المسلمات هو نظام غير كامل، وأن ثمة حدّاً لمعرفتنا الرياضية.

• الإيغال في النزعة الفردية؛ وهي ما حول الإنسان من الخيرية الفطرية إلى الأنانية والتشوي<sup>(31)</sup>، ومن الحلم الإنساني إلى الوحشة والاعتراب، ومن الإلهام المتعالي إلى الأدوات والتفاهة. وإلى "خطاب تعمل فيه الحقيقة بوصفها سلاحًا من أجل انتصار منحاز"، كما عبّر عن ذلك فوكو<sup>(32)</sup>.

مثلت الطمأنينة التي كان المجتمع الغربي قد وصل إليها مع قيم الحداثة: العلم، والتقدم، والحرية، والعقل، والحقيقة، يقينيةً جاهزةً جديدة، استكان معها سؤال التنوير ومشروع الحداثة، على امتداد القرن التاسع عشر، إلى حتمياتها التقدمية. وبسبب القوة العلمية والاقتصادية والعسكرية التي حققت الانتصار والازدهار، وبسبب الحراك النقدي الذي أشاعته أدوات الطبقة الوسطى: الصحافة، والمسرح، والجامعة... إلخ، كانت البقية الجاهزة والإيمان بحتمية التقدم تعاضم، وتحول التنوير إلى سلطة معيارية شمولية تفتقد إلى تكويناته الأولى التي أقيمت على مبادئ إنسانية. وفوجئ إنسان ما بعد التنوير والحداثة بما آل إليه حاله في النصف الأول من القرن العشرين؛ الذي مثلت فيه النزعة النازية حتمية التنوير ويقينيتها<sup>(33)</sup>. وفي الوقت نفسه كانت النزعة الرّبيبة تغرس بذورها شيئًا فشيئًا بسبب أساتذة الشك الرّبيين، الذين سببوا الاضطراب لتلك الأسئلة الوثوقية، وأحلّوا محلها اللّايقين. لقد كانت الطمأنينة تتأهب للرحيل، وقيم التنوير والحداثة تواجه مآلاتها.

شكلت المساءلات التي وجهها نيتشه للتنوير، والعقلانية، والأخلاق، والمثُل، طابعًا حادًا وشكلاً من أشكال العدمية الصاخبة في إطار النقد الساخر الذي لا يرى في القيمة الإنسانية أي جدوى؛ ومعه بدأت الضربات القاسية لمركزية العقل والمفاهيم المرتبطة به، وبه تأسست ميوعة النظرة إلى القيمة ونسبيتها وهلامية تشكلها. فبحسب رأي نيتشه، "يبدو لنا العالم منطقيًا لأننا نحن من منطقتنا أولاً"<sup>(34)</sup>. وعبر الجينيولوجيا (وهي المقاربة التي توسلها في المعالجة)، بحث نيتشه عن الأصول الأولى في تشكّل الحدث، ليؤكد أن كل أصل يدعي أنه أصل ليس إلا أثرًا، وأن أصول الأشياء ليست أكثر من وهم اصطنعناه. فليس ثمة شيء من الحقيقة وراء الأشياء، غير كونها بلا حقيقة أو جوهر، ومهمة الجينيولوجيا حينذاك ليست سوى البحث في التفاوتات ورصد التشتت؛ لا بهدف التأسيس لمركزية ثابتة، وإنما لمزيد من إرباك المسلمات وما يُعتقد أنها حقائق، في سبيل الهدم وتقويض الأخلاق ومثالياتها، وبشكل آخر تقويض السؤال النقدي الكانطي، وتخليق عبثية السؤال. لقد كان السؤال لدى نيتشه معنيًا بالكيفية التي يعيش فيها وفقًا للغريزة، لا الكيفية التي يختبر بها

(31) التشوي Reification: مصطلح أنشأه كارل ماركس، ويعني "السيرورة التي تتخذ فيها ظواهر منتج اجتماعيًا خاصيات ثابتة شبيهة كما لو أنها جزء من الطبيعة"، يُنظر: تيري إيغلتن، معنى الحياة، ترجمة عهد علي ديب (دمشق: دار الفرق للطباعة والنشر، [د.ت.]، ص 19؛ وهو لدى أدورنو وهوركهايمر: "مرحلة يتحول فيها الفكر إلى سلعة، ولا تكون اللغة أتذ سوى وسيلة لتسويق هذه السلعة". ينظر: أدورنو وهوركهايمر، ص 14.

(32) ميشيل فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع: دروس أُلقيت في "الكوليج دي فرانس" 1976، ترجمة الزواوي بغورة (بيروت: دار الطليعة، 2003)، ص 257.

(33) ينظر قول فوكو: "إن النازية هي قبل كل شيء شكل تطور السلطة التي تم إرساؤها منذ القرن الثامن عشر. فليس هناك دولة انضباطية أكثر من النظام النازي". المرجع نفسه، ص 249.

(34) نيتشه، ص 214.

العالم، و"لم يعد السؤال لدى نيتشه هو كيف أعرف؟ ولكنه السؤال الإشكالي الجديد كيف يمكنني أن أحيأ"<sup>(35)</sup>.

## رابعاً: من أسئلة الحداثة إلى مساءلات ما بعد الحداثة (من الشك إلى الاليقين)

شكّلت أسئلة الحداثة، على مستوى الإنسان والفكر والعالم، حتمية التقدم ونقطة العبور الرئيسة نحو تجذير الوعي المعقلن والمنهجية العلمية، عبر الإيمان بالقدرة الذاتية للإنسان في تفسير ما حوله، من خلال فعاليته في استخدام قدراته العقلية وأدواته التجريبية، بعيداً عن أي مؤثر خارجي متعالٍ أو لا يمكن التدليل عليه، مع إعلاء قيمة الواجب وتقديسه ومحايثته.

مثلّ التعليم في المدرسة، والرسملة في السوق، والإعلام عبر الصحف، في الوسط الغربي إبان الثورة الصناعية، وسائل ومرتكزات أساسية لتنميط الفرد، وإحكام الإطار، والسيطرة على الفكر. غير أن تلك الديمقراطية في التعليم (مثلما أسهمت في نقل الإنسان من الفهم البسيط إلى الفهم المركب، ومن محدودية التصور إلى فهم العالم، ومن كفاية الموارد إلى كفاءة الإنتاج) أسهمت كذلك في تنميط مئات الملايين من البشر، وصناعة النماذج المكررة، تلك التي تألّف الاعتياد، وتهاب الانشقاق من التسلسل، وتخشى سكرة الدوار، إذا هي أفلتت من النسق؛ فتمت قولبة الإنسان الحديث ونمذجته؛ وهو ما زاد في اغترابه وتقيد حريته وخياراته، على الرغم من شكلائية التحرر التي يحيهاها.

ومع أن المدارس الفكرية والنقدية كانت منفتحة على التعدد والتنوع، فإن الإطار كان على نحو شديد الإحكام؛ ما جعل المجتمعات الغربية مقودةً ضمن النمط العام لفكر الحداثة مستندةً إلى الطمأنينة التي اكتسبتها خلال القرن الثامن عشر، وتسارع وتيرة التقدم العلمي والتقني، والوفرة المادية التي مكنت الحداثة من الثقة بطريقتها وفعاليتها أفكارها. ومع تلك الطمأنينة الموهمة تدرجت كرة الثلج نحو سقوط القيمة وانفلات المعنى، وفوجئ الإنسان الغربي بالنتائج غير المتوقعة؛ فإلى جانب التقدم التقني، وانطلاق التجريب في فضاء العلوم، وتطور الفكر، والتمكن من تفسير كثير من الظواهر في إطار المنهج التجريبي، كان تشييئ الإنسان والفكر والقيمة يتسرب إلى المجتمع الغربي بالتوازي والتزامن، من دون أن تحايثه محاذير سقوط القيمة. وإذا كان الاستعمار والحربان العالميتان والقنبلة النووية قد مثلت كلّها الانكسار الحادّ الذي صدم الإنسان الغربي في أحداثه وعلانياتها، فإن النتيجة الطبيعية للمتوالية الحلزونية الهابطة، التي جسدت اللاتحدد واللا رؤية، كانت قد قربت الإنسان الغربي من الإحساس بالعبث والعدمية التي تجسدت في أطروحات نيتشه في وقت باكر.

(35) عبد الرزاق بلعقروز، المعرفة والارتباب: المسألة الارتبابية لقيمة المعرفة عند نيتشه وامتداداتها في الفكر الفلسفي المعاصر (بيروت: منتدى المعارف، 2013)، ص 129.

ویدعوی مناهضة الدوغمائية القاطعة، ویدعوی النسبية والهروب من "أسطورة الإطار"<sup>(36)</sup> أيضاً، وجد إنسان الحدائة نفسه قریباً من السیولة والعبث والعدمية، كما تشي بذلك أدبيات ما بعد الحدائة، وتقوضت معاني المركز؛ الأمر الذي أسهم في وقوع المجتمع الغربي وإنسانه في فوضى الدلالة واللاتحدد والشعور المعمق باللاجدوی.

مثلت ظاهرة ما بعد الحدائة رؤية اللارؤية لدى مجتمع ما بعد الصناعة، الذي يشير إليه النقاد بوصفه ظاهرة مجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية، حين تعری النموذج أمام نفسه وهو يفقد شيئاً فشيئاً القيمة والمعنى والمركز، ويرتد يوماً بعد يوم عن أسس الحدائة والمفاهيم المركزية التي قامت عليها. ووجد الإنسان نفسه أمام صدمات الواقع: هيمنة القوة على الرؤية (الاستعمار)، وهيمنة السلعة على القيمة (التشييء)، وهيمنة الكماليات على الإنتاج (الاستهلاك)، وهيمنة النسبية على التحدد (العدمية)، وهيمنة الصورة على الواقع (الزيف). ومن دون شك، أسهم التراجع الحاد في فاعلية أدوات الحدائة في حدوث كل ذلك: المدرسة في التكوين العلمي، والجامعة في التأسيس المنهجي، والإعلام في صدقية نقل الوقائع، والكتاب في بيان الحقيقة.

وإذا كانت أسئلة الحدائة قد مثلت عصر اليقینيات الكبرى بالإنسان والعلم والمنهج والعقلانية والحقيقة وحتمية التقدم، وأسست مفهوم الواجب، فإن مساءلات ما بعد الحدائة قد مثلت العبث والإنكار والشك، وتحملت تبعه مواجهة أسس الحدائة المركزية:

• العقلانية (بدعوی ما أوصلت إليه الإنسان من الدوغمائية القاطعة و"أسطورة الإطار").

• العلمية (بسبب تحولها إلى أيديولوجيا وأداة للهيمنة والقمع).

• الحتمية (التي أنتجت منحنى الثبات ونمطت الإنسان).

وصولاً إلى العدمية والسیولة والشك؛ العدمية التي تنفي الحقيقة، والسیولة التي تضفي النسبية على الأشياء والعلاقات، والشك الذي يقوِّض المركز الثابت وكل اليقینيات، عبَّرَ طرح ما بعد الحدائة عن حالة إخفاق العالم في تفسير وجعه الأنطولوجي وأزماته المتلاحقة وبعده عن القيمة الإنسانية، ولكنه أوغل في الاتجاه الخاطيء، الذي لم يجد غيره، في المعالجة؛ فذهب ينكر الثبات والیقینيات، ويعارض الحتميات والإكراهات، ويكفر بكل السرديات الكبرى<sup>(37)</sup>، وذهب يقوِّض كل ما يمكن عدُّه أساساً

(36) جرت استعارة هذا المسكوك من عنوان كتاب مشهور للفيلسوف النمساوي الإنكليزي كارل بوبر Karl Popper (1902-1994)، وفرضية الكتاب الرئيسة "أن الاعتقاد بالمصير التاريخي مجرد خرافة، وأنه لا يمكن التنبؤ بمجرى التاريخ الإنساني بطريقة من الطرق العلمية أو العقلية"، والعبارة هنا لبوبر نفسه في بداية مقدمة الكتاب. يُنظر: كارل بوبر، أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية، ترجمة يمنى طريف الخولي، سلسلة عالم المعرفة 292 (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001).

(37) السرديات الكبرى Grand Narratives مصطلح تهكمي سكه جان فرانسوا ليوتار Jean-François Lyotard (1924-1998)، في كتابه المشهور الوضع ما بعد الحدائي، لتأكيد سقوط "النظرية الكبرى" (الأنساق الفكرية المغلقة)، وسقوط الأفكار الخطية المتسمة بالوثوقية، كالقول بتقدمية حركة التاريخ والجنس البشري، والإنسانوية، والعقلانية، والحرية بوصفها مقصداً غائياً، يُنظر:

Jean-François Lyotard, *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*, Geoff Bennington & Brian Massumi (trans.) (Manchester: Manchester University Press, 1984).

ومرجعيةً ومركزاً، في تعبير ناقد ساخط لا يحجم عن إثارة الأسئلة فقط، بل يدمر كل إجابة جاهزة، وكل يقين مستقر، وكل منهج عقلاني؛ وهو أمرٌ جعل من "ما بعد الحداثة" حركة احتجاجية مراهقة أكثر من كونها فعلاً تأسيسياً ريادياً. لقد أراد لها فلاسفتها أن تكون كذلك، واختاروا لها أن تتموضع في جانب الشك الدائم على حساب اليقين، وأن تنتج النقد المجرد من القيمة عوضاً عن استهداف الغاية الإنسانية منه، وأن تسقط في الوهم واللاوعي على حساب الوعي والعقلانية. ولعل "الواجب على الأرجح كان أن نتعلم من حالات التيه التي صاحبت مشروع الحداثة، ومن أخطاء مشاريع التجاوز المغرورة، بدلاً من أن نتخلى عن الحداثة ومشروعها"<sup>(38)</sup>، "غير أن بروز مدرسة الاختلاف وفكر ما بعد الحداثة والاتجاه التفكيكي في الفلسفة والأدب قد زاد من عدد حفاري قبور الذات البشرية، وأوقع الإنسان في حيرة أكسيولوجية رهيبة ضاعفت من الريبة واللاأدرية، وروجت لمفاهيم القطيعة الكارثية والنزعات الارتكاسية والواقعية العدمية"<sup>(39)</sup>.

يمكننا هنا استبصار فرضية التحويلات السالبة بسبب تلاشي الأسئلة (إلى جانب التحويلات الموجبة بسبب الأسئلة المؤسسة)، مع حالة الإحباط الشديدة واللاجدوى التي وصل إليها إنسان ما بعد التنوير والحداثة في العالم الغربي، وعدم الاطمئنان إلى إجابات شافية عن أسئلة الواقع، عبر رحلة ذلك المشروع الحضاري بفصوله المتعددة: الشك الموصل إلى اليقين من النهضة إلى عصر الأنوار، واليقين الجاهز الذي استبد بإنسان العقل الأداة، واللايقين الذي عصف بإنسان ما بعد الحداثة.

إن تلاشي الأسئلة الكبرى، تلك التي تُعنى بالأسئلة المعقدة عن العلة والجدوى والأثر والعلاقات البينية، وتراجع مستوى تخليق الافتراضات والاحتمالات الناتج من تلك الأسئلة للوصول إلى رؤية أنطولوجية واضحة في الماهيات والمفاهيم وفي المدلولات وعلاقاتها الارتباطية بالأشياء والعالم، ليؤكد عمق الإشكال، ويشير، في غياب أبدال الروافع، إلى قلق النكوص، في مقابل هجمات فلسفات الضياع واللاعقلانية.

## خاتمة

إجمالاً يمكننا رصد الاستنتاجات المركزية الآتية:

- يشير تتبع الحالة الغربية من التنوير حتى ما بعد الحداثة، على مستوى الفكر الفلسفي، إلى تراجع ملحوظ في مؤشر تخليق الأسئلة الكبرى، من الأسئلة النقدية ذات المنحى الحتمي إلى الأسئلة الشكوية والريبة المسببة للايقين، وإلى الارتحال من الحتمية والأنساق المركبة إلى اللاتحدد والأنساق التجزيئية، ومن العقلانية والوعي إلى السقوط في فخ اللاعقلانية واللاوعي، ومن الرؤية الناقدة إلى السقوط في فخ التحليل التشاؤمي من دون معالجة جذرية وإنتاج الحلول، ومن مجتمع الدولة

(38) هابرماس، ص 191.

(39) زهير الخويلدي، تشريح العقل الغربي: مقابسات فلسفية في النظر والعمل (الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع؛ بيروت: دار الروافد الثقافية - ناشرون، 2013)، ص 45.

الإنسانية إلى الإيغال في تجذير "مجتمع القبيلة الأحادي الرؤية"، وإلى الإيغال في "التشيؤ" والسقوط في "الاغتراب".

• يحسب للعقلانية أنها هيأت الأرضية للتنوير بالمنهج والعلمية، ويحسب للتنوير أنه صنع إنسان الحدائة الناقد الذي تمثل ذلك المنهج وتلك العلمية، ويحسب للشكية والريبية بحث الإشكالات التي وقع فيها الفكر الفلسفي والفكر الأدبي، والانشقاق عن النمط بتفكير مخالف.

• ويحسب على العقلانية وقوعها في الحدية والحتمية، ويحسب على التنوير، وحدائته، أنه أوصل الإنسان إلى حافة "التشيؤ" وأوقعه في "الاغتراب". كما يحسب على ما بعد الحدائة تغولها في اللايقين.

• اتسمت الجهود النقدية، التي وجهت إلى التنوير والحدائة، بالتنظير وتأسيس المفاهيم في مُساءلة العقل الأداتي، من دون التحول إلى مشروعات فاعلة على أرض الواقع، كما أنها اتسمت بالتشاؤم.

• أثبتت نظرية "التحدي والاستجابة"<sup>(40)</sup> قوة التنوير ومشروع الحدائة وصموده في مواجهة الريبية ونقد فلاسفة اليسار طوال العقود الثمانية الأولى من القرن العشرين. غير أن التحولات في الفكر الإنساني، نحو النسبية وعدم الاكتمال واللايقين، قد أدّى إلى تشطي الرؤية، وتغول التشيؤ؛ ما دفع بطرح ما بعد الحدائة إلى الواجهة، لتقرر موت السرديات الكبرى، وتقويض اليقينيّات الحدية، وتفكك المركز والثابت.

## References

## المراجع

### العربية

أدورنو، ثيودور وماكس هوركهايمر. *جدل التنوير: شذرات فلسفية*. ترجمة جورج كتورة. بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2006.

إيغلتن، تيري. *معنى الحياة*. ترجمة عهد علي ديب. دمشق: دار الفرقد للطباعة والنشر، [د. ت.].

بحري، محمد الأمين. *البنوية التكوينية*. بيروت: منشورات ضفاف، 2015.

بلعقروز، عبد الرزاق. *المعرفة والارتباب: المساءلة الارتبابية لقيمة المعرفة عند نيتشه وامتداداتها في الفكر الفلسفي المعاصر*. بيروت: منتدى المعارف، 2013.

بناني، عز العرب لحكيم. "المعرفة، نحو عقلانيات إجرائية". *عالم الفكر*. مج 41، العدد 154 (تشرين الأول/ أكتوبر - كانون الأول/ ديسمبر 2012).

(40) نظرية مشهورة للمؤرخ البريطاني أرنولد توينبي Arnold J. Toynbee (1889-1975)، يفند فيها فرضية سقوط الأنموذج الغربي، التي تبناها آرثر هيرمان في كتابه المشهور فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي، بنظريته المعاكسة التي عرفت بنظرية "التحدي والاستجابة".

- بوبر، كارل. أسطورة الإطار: في دفاع عن العلم والعقلانية. ترجمة يمى طريف الخولي. سلسلة عالم المعرفة 292. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2001.
- بيكون، فرانسيس. الأورجانون الجديد: إرشادات صادقة في تفسير الطبيعة. ترجمة عادل مصطفى. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2013.
- تورين، ألان. نقد الحداثة. ترجمة أنور مغيث. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 1997.
- الخويلدي، زهير. تشريح العقل الغربي: مقابسات فلسفية في النظر والعمل. الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع؛ بيروت: دار الروافد الثقافية - ناشرون، 2013.
- ديكارت، رنيه. مقالة الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم. ترجمة جميل صليبا. الجزائر: موفم للنشر، 2007.
- سبينوزا، باروخ. علم الأخلاق. ترجمة جلال الدين سعيد. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009.
- سليمانى، الحسان. "جدلية التعالي والمحاثة في الفلسفة الحديثة: نقد اسبينوزا للأصول الأرسطية والأسس الديكارتيّة للتعالي الإلهي". تبين. العدد 25 (صيف 2018).
- فوكو، ميشيل. الكلمات والأشياء. ترجمة مطاع صفدي [وآخرون]. ط 2. بيروت: دار الفارابي، 2013.
- \_\_\_\_\_. يجب الدفاع عن المجتمع: دروس ألقيت في "الكوليج دي فرانس" 1976. ترجمة الزواوي بغورة. بيروت: دار الطليعة، 2003.
- كروزيه، موريس [وآخرون]. تاريخ الحضارات العام. ج 5 (القرن الثامن عشر). ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد داغر. ط 2. بيروت/ باريس: منشورات عويدات، 1987.
- كنط، عمانوئيل. نقد العقل المحض. ترجمة موسى وهبة. بيروت: مركز الإنماء القومي، 1990.
- لالاند، أندريه. موسوعة لالاند الفلسفية. تعريب خليل أحمد خليل. بيروت/ باريس: منشورات عويدات، 2001.
- ماركوز، هربارت. الإنسان ذو البعد الواحد. ترجمة جورج طرابيشي. ط 3. بيروت: دار الآداب، 1988.
- موران، إدغار. الفكر والمستقبل: مدخل إلى الفكر المركب. ترجمة أحمد القصور ومنير الحجوجي. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2004.
- نيتشه، فريدريك. إرادة القوة: محاولة لقلب كل القيم. ترجمة محمد الناجي. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2011.

هابرماس، يورغن. "الحداثة - مشروع لم يكتمل". ترجمة فتحي المسكيني. تبين. العدد 1 (صيف 2012).

هيجل، فريدريك. العقل في التاريخ. ترجمة إمام عبد الفتاح إمام. ط 3. بيروت: دار التنوير، 2007.

#### الأجنبية

Baldick, Chris. *The Concise Dictionary of Literary Terms*. Oxford: Oxford University Press, 1996.

Baudelaire, Charles. *The Painter of Modern Life and Other Essays*. Jonathan Mayne (trans.). New York: Phaidon Press, 1965.

Craig, Edward. *Routledge Encyclopedia of Philosophy*. New York/ London: The Softback Preview Publisher, 1998.

Kant, Immanuel. *Toward Perpetual Peace and Other Writings on Politics, Peace, and History*. David L. Colclasure (trans.). New Haven/ London: Yale University Press, 2006.

Lyotard, Jean-François. *The Postmodern Condition: A Report on Knowledge*. Geoff Bennington & Brian Massumi (trans.). Manchester: Manchester University Press, 1984.